مفاهيم تداولية

لـ: دومينيك مانقينو ترجمة: منى بدري

اهتمام قديم:

إن التداولية هي ملتقى تأملات متعددة المنابع لذا فإنه من الصعب حصرها والإحاطة بها. وقد يتراءى لنا، من جهة، أنها لم تغز مجال العلوم الإنسانية إلا حديثا، ومن جهة أخرى، فلقد طرحت في مسائل لغوية ضاربة في القدم. والواقع أنه لا يجب الخلط بين الظواهر المعتبرة حاليا على أنها متعلقة بالتداولية وتأسيس شبكة من التصورات التداولية المقصودة قصدا.

فمنذ ظهور الفكر اللساني في اليونان، بدا الاهتمام الكبير بكل ما يمس فعالية الخطاب في السياق. إن علم البلاغة، أي دراسة قوة الإقناع في الخطاب، ليندرج تماما في المجال الذي تحدد التداولية اليوم معالمه. وبإمكاننا وصف تاريخ الفكر الأوروبي حول اللغة – على نحو مبسط – بأنه نتيجة الانفصال المؤسس الذي تم بين "المنطق" و"البلاغة ". فالأول مرتبط بالمبحث الأنطولوجي، يطرح قضية شروط الملفوظ الصادق عن طريق تحليل قضية، أما الثانية التي اهتم بها السوفسطائيون والبلاغيون، فتترك جانبا مسألة الحقيقة لدراسة اللغة باعتبارها خطابا منتجا للتأثيرات وكقوة تأثير في الواقع.

لكن هذين التوجهين، كثيرا ما يتداخلان، ذلك هو الأمر بالنسبة لـ " المنطق " " Logique " الشهير لمدرسة " بورروايال " " Port–Royal "* منها الآتي على سبيل المثال : " مما يحدث في غالب الأحيان، أن تثير كلمة ما، بالإضافة إلى الفكرة الأساسية التي نعتبرها معناها الحقيقي معاني أخرى كثيرة بإمكاننا نعتها بالأفكار الثانوية والتي غالبا ما لا نوليها اهتماما كبيرا مع أنها تترك انطباعا في الذهن.

فمثلا لو أننا قلنا لشخص ما أنك كذبت ولا نعود إلا للمعنى الحقيقي لهذه العبارة، فسيكون الأمر كما لو أننا قلنا : أنت تعرف عكس ما تقول ولكن بالإضافة إلى هذا المعنى الأساسي، يعبر هذا الكلام عند الاستعمال، عن فكرة تحمل معنى الاحتقار والشتم، توهمنا أن محدثنا يستخف بنا ولا يبالي لو شتمنا، وهذا ما يجعل كلامه مهينا وجارحا".

وهنا، بفضل مفهوم " الفكرة الثانوية " (Idée Accessoire)، يحاول المؤلفون فصل المحتوى القضوي للملفوظ، سنطلق عليه فيما بعد تسمية " القوة الإنجازية " (Force Illocutoire)، وفي حالتنا هذه تأخذ معنى الشتم. ومن هنا، يمكن تسجيل تعقد ظاهرة " الاستعمال " اللغوي مع المحافظة على استقلالية وأولوية المنطقي. وفي السياق نفسه، يتساءل منطقيو " بور روايال " حول القوة السرية التي تجعل التلفظ بالعبارة " هذا هو جسدي " يحول فعلا الخبز، بالنسبة للمؤمن، ليصبح جسد المسيح.

* Nicole , La Logique ou l'Art de Penser , 1962 (Texte remanié jusqu'à l'édition de 1683) -A. Arnauld.rééd. Flammarion, 1970

ولقد أولى علم النحو، عبر تاريخه الطويل، اهتماما بعدد معتبر من الظواهر التي تدخل حاليا في نطاق اهتمام التداولية. إن دراسة : الصيغة والزمان والتحديد الإسمي والخطاب المنقول وحروف التعجب.. الخ، تفرض أخذ عملية التلفظ بعين الاعتبار، ولكن انشغال التقاليد النحوية بالجانب الصرفي التركيبي أساسا،يركن في زاوية الطابع التداولي لهذه الاهتمامات، كما أن عنصرا مثل "بصراحة" (Franchement) في "قل لي بصراحة ما رأيك"، اعتبر قبل كل شيء "قرينة ظرفية" (adverbe de phrase)، انطلاقا من نوعه ومغزاه وليس من خلال قيمته التخاطبية.

وبشكل تبسيطي، يمكننا ملاحظة الجهد المبذول في الفكر التداولي لإعادة التفكير في القطيعة بين المنطقي والبلاغي، أو عندما يكون التفكير لسانيا بحتا لإعادة النظر في القطيعة بين البنية النحوية واستعمالاتها؛ وبعبارة أخرى، تكون التداولية لسانية إذا اعتبرنا أن استعمال اللغة وتملكها تكون من قبل متلفظ يتوجه بكلامه إلى مخاطب في سياق معين، لا يقحم من الخارج على ملفوظ مكتف بذاته مبدئيا، ولكن بنية اللغة تكون مشروطة أساسا لكونها موظفة من قبل تلفظات فردية بالتلفظات الفردية وأنها تحدث أثرا معينا ضمن سياق معين، لفظي أو غير لفظي.

إن التمايز بين مختلف مدارس التداولية يقوم أساسا على هذه القاعدة. فمن جهة، نجد أنصار الحد الأدنى (Les Minimalistes) ممن يرون أن الجانب التداولي مكون من بين مكونات اللسانيات، إلى جانب النحو وعلم الدلالة. وفي الجهة المقابلة، نجد فئة تقول بامتداد رقعة التداولية على سائر المحيط اللساني، أي أنه لا يمكن لأي ظاهرة لسانية أن تخرج من دائرة التداولية. وبما أن التداولية ليست محط اهتمام اللسانيين وحدهم، فلقد أدى هذا إلى زيادة الخلط. والحقيقة أننا لو حددنا التداولية وقلنا أنها " دراسة اللغة في السياق "، لن يمكننا هذا من التحديد المسبق للدرس الذي سيتبنى هذه الدراسة؛ فمن عالم الاجتماع إلى عالم المنطق، تخترق اهتمامات التداولية مجمل البحوث التي تهتم بالمعنى والتواصل وغالبا ما نرى التداولية تتجاوز الخطاب لتصبح نظرية عامة لـ "الفعل" الإنساني.

إن عوامل التنوع هذه تسمح بفهم وإدراك السبب الذي يجعل التداولية تبدو كخليط للعديد من الحقول المتداخلة فيما بينها،تهتم كلها بدراسة "اللغة ضمن السياق".ومما لا ريب فيه، أنه توجد بعض المعالم المكررة والقضايا المفهومية التي تحظى باهتمام خاص، ولكنها تصاغ صياغات مختلفة.

الدلالية والتداولية

إن تحديد التداولية كمجال متخصص في دراسة اللغة، لم ينسب عادة إلى لساني، بل إلى الفيلسوف والسيميائي الأمريكي ش. موريس (C. Morris) "أسس نظرية العلامات" 1938 (Fondations of the theoryof signs) والذي قسم فهم لغة ما (شكلية أو طبيعية)، في إطار النظرية العامة للدلالة "Sémiosis"،إلى ثلاثة حقول:

1) حقل التراكيب.

2) حقل الدلالية.

3) حقل التداولية.

وهي تتطابق والعلاقات الأساسية التي تنشئها العلامات: مع علامات أخرى (التركيب)ومع ما تدل عليه (الدلالية) ومع مستعمليها (التداولية).

ويتبين لنا أن فكر موريس ليس موحدا، ويبدو أنه متردد بين فكرة أن المكونة التداولية تخترق المكونة الدلالية (وهذا يعني أن العلامات لها في الوقت نفسه بعد تداولي وبعد دلالي) والفكرة التي ترى أن التداولية تهتم فقط بمجموع الظواهر الباقية ذات الطابع البسيكوسوسيولوجي والتي أهملها النحو وعلم الدلالة (السيميائية). ولكن مثلما يحدث غالبا، فلقد تم الاحتفاظ بأضعف صورة لتقسيم موريس والتي مفادها أن التداولية أحدثت كعلم ملحق يهتم بما يفعله المستعملون بالملفوظات، (فكلمة "Pragmatique" أصلها يوناني "Pragma "، أي "عمل ")، بينما يعالج علم الدلالة مضمونها التمثيلي، المطابق لـ "شروط الحقيقة" لديهم (المستعملين) أي الشروط اللازمة لكي يكون الملفوظ صادقا.

في هذا المفهوم، تنفصل التداولية عن علم الدلالة، ويصبح الاستعمال منفصلا عن المعنى، أي أن "القول" منفصل عن "المقول ". ونتصور أن النقاش سيتركز حول هذا الانفصال، أي بين من يريدون الحفاظ عليه ومن يريدون محوه. هل من جزء واحد في المركبة الدلالية لا يخضع للتداولية؟ وإن وجد، فما هو؟ وهل بإمكاننا فهم وإدراك معنى المنطوق بمعزل عن عملية التلفظ؟ بالنسبة للكثير، فإن الحل الوسط والأكثر قبولا يكمن في التمييز بين الدلالية التمثيلية التي تهتم بدراسة شروط الحقيقة في جملة ما، وبين الدلالية "التداولية" التي تهتم بمعالجة ما لم تحط به الدلالية التمثيلية: وعلى وجه الخصوص "الإشاريات " "Les Embrayeurs"، والتي سنتطرق إليها بعد قليل. وبناء على ذلك، ستبدو التداولية لا كدراسة للجمل باعتبارها نماذج خارج السياق، بل كدراسة لتحقق الجمل، دراسة لهذا الحدث الفريد ممثلا في عملية التلفظ.

يبدو الفكر التداولي كعملية ربط للحقول المفصولة تقليديا بالعلم. ومن بين عمليات الفصل الأساسية التي كانت محل نقده، تلك التي بين الملفوظ والسياق، ولقد تجلى ذلك، على الخصوص عبر الاهتمام بما يسميه علماء المنطق بـ "عناصر الفهرسة" (Elements Indexicaux)، وعلماء اللغة مقتفين في ذلك آثار جاكبسون Jakobson، بـ: "الإشاريات" (Les Embrayeurs): (أنا، أنت)، الظروف الزمنية (الآن، غدا،..) أو المكانية (هنا، إلى اليسار، ...). وهنا تظهر للعيان إشكالية شهيرة تشير إلى أن هناك وحدات لسانية يقتضي تأويلها اعتبار تواردها" (occurrence) وأخذه بعين الاعتبار.

والواقع أن وجود مرجعية مختلفة لهذه الإشاريات عند كل تلفظ ليس هو ما يستدعي النقد والاهتمام ولكن تأثيراتها على إدراكنا للغات الطبيعية؛ حيث تبدو اللغة كنظام موجه انطلاقا من بؤرة، فالعملية التلفظية، هي نفسها، مترسخة في اللغة بمقدار ترسخ النحو أو الصرف. ومن المؤكد أن "أنت" (tu) يكتسب قيمة جديدة في كل مرة، ولكن الحاجة لرد المنطوق لمتلق تفرض نفسها لدى كل عملية تلفظ ؛ وبالطبع، فإن الإحالة المرجعية للمجموعة الإسمية "الولد" (le garçon) تتغير بتغير الأداءات، ولكن القواعد التي تمكن المتلقي من تحديد دلالة اسم مسبوق بـ (le) هي في كل الأحوال ثابتة.

وبالنسبة للتداولية وحدها، فإن الأخذ بالإشاريات (Les Embrayeurs) ليس كافيا لإعطاء التيار التداولي الدفع اللازم، ويعتبر الدافع القطعي نتيجة الفكر حول أفعال الكلام (Les actes de langage) التي قطعت شوطا كبيرا بأخذها

على عاتقها مسألة الفصل بين الدلالية والتداولية بنقض الفكرة التي مفادها أن معنى الملفوظ يتوافق مع حالة العالم الذي يمثله، بمعزل عن أدائه. وهذا بالتحديد، ما كان ثمرة أبحاث الفيلسوف البريطاني جون أوستين (John Austin).

أفعال الكلام:

في كتابه "الكلام من حيث هو فعل ؟"[2] (1962)، بدأ أوستين بالاهتمام بأفعال مثل "أقسم "، "عمد" (baptiser, jurer)، والتي أسماها بالأفعال الإنجازية (Verbes Performatifs). وتتميز هذه الأفعال بكونها تحقق ما تقوله، وتؤسس واقعا جديدا عبر أدائها فحسب، وهكذا فإن قول "أعمدك" (je te baptise) أو "أقسم بذلك" (je le jure) معناه: عمد أو أقسم. وبطريقة عكسية، لإتمام عملية التعميد أو القسم استوجب القول "أعمدك" أو "أقسم بذلك ". إن هذين الملفوظين لا يمكن الحديث بصددهما عن الصحة أو الخطأ، بل كل ما يمكن فعله هو التساؤل عما إذا كان الفعل الذي يمثله كل واحد وينجزه "ناجحا" أم لا، إذا كان هناك، بالفعل، تعميد أو قسم. هذه الأفعال الإنجازية تتعارض مع أفعال أخرى، يسميها (أوستين) بـ "الأفعال التقريرية" (Verbes Constatifs)، والتي تهتم بوصف حالة العالم بمعزل عن تلفظها: (" أجري "، "أحب وطني") كما تحتمل الصحة أو الخطأ. وبالتركيز على هذه المجموعة المتفردة من الأفعال، يريد "أوستين" (Austin) نقد "خطأ النزعة الوصفية" (erreur descriptiviste)، أن تمثيل حالات العالم تعتبر من أهم وظائفها، أو بالأحرى وظيفتها الوحيدة.

لقد تحدثنا عن "الأفعال الإنجازية" ولكنه كان من الأجدى التحدث عن "التلفظ الإنجازي"، وبالفعل، فلاوجود لفعل إنجازي دون استعمال، فإذا قلنا: "يعمد بول الأطفال بتغطيسهم في الماء" (Paul baptise les enfantspar immersion)، "وعدته البارحة" (je l'ai promis hier)، "أقسم بذلك دوما" (je le jure souvent)، ليس هناك فعل، فهي ملفوظات تقريرية يكون فيها وصف الحالة بمعزل عن العملية التلفظية، وبإمكاننا ملاحظة أن التلفظ الإنجازي يتطلب "حاضرا آنيا" (présent ponctuel) والضمير "أنا "، فكل من العنصرين مترابطان كثيرا ببعضهما، بما أن "الإنجازية" (performativité) تتطلب تطابقا دقيقا بين فاعل التلفظ وفاعل الملفوظ، أي بين القول (le dire) والمقول (le dit)، فعند قولنا: "أنا أقسم" (je le jure)، لا يعود الضمير "أنا" (je) على المتكلم، وكأنه أي شخص آخر: "بول" (Paul) أو "أخي" (mon frère)، ولكنه يعود على المتكلم باعتباره هو المتلفظ.

ولكن أوستين تخلى تدريجيا عن هذا التمييز بين "الملفوظ التقريري" (énoncé constatif) و"الملفوظ الإنجازي" (énoncé performatif)، والحقيقة أنه تبين له استحالة إيجاد تلفظات مجردة من القيمة الإنجازية، لا تهتم إلا بتمثيل العالم، وحتى الملفوظ الذي يبدو وصفيا بالدرجة الأولى، مثل: "إنها تمطر" (Il Pleut) ينشأ حقيقة جديدة وينجز هو أيضا فعلا، وفي هذه الحالة يتعلق الأمر بفعل إثبات. فبالنسبة لأوستين، لا يوجد فرق في التصريح (explicitation) عند قولنا "إنها تمطر" (Il pleut) و"أؤكد أنها تمطر" (j'affirme qu'il pleut)، فالفعل الإنجازي (le performatif) يصبح "صريحا" (explicite) في الحالة الثانية و"أوليا" (primaire) في الأولى. ومن المؤكد أن أفعالا مثل "ساند، أكد، أمر" (soutenir, affirmer, ordonner)، أحداث ذات طبيعة لغوية، فهي ليست من نفس نوع الأفعال "المؤسساتية" (institutionnelles) مثل

2 - ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان *Quand dire c'est faire,* Seuil, 1970.

"أقسم، عمد، قرر" (jurer, décréter, baptiser)، ولكنه الأمر في كلتا الحالتين يتعلق بـ "أحداث لغة" (actes de langage) (هناك أيضا مصطلحات مثل: أحداث الكلام actes de parole وأحداث الخطاب actes de discours).

وينتج عن كل عملية تلفظ بعد "كلامي" (illocutoire) أو (illocutionnaire)، إذن، فمفهوم "التقريري" أيسر فهما من "الإنجازي "، فما نسميه "معنى" اللفظ يجمع بين مركبين: إلى جانب محتوى القول القضوي وقيمته الوصفية التي تكون نفسها عند قولنا (Paul part) و(Paul pars) "ذهب بول" و" بول اذهب "، هناك قوة تحقيقية هي التي تحدد لنا نوع حدث اللغة الذي تم إنجازه عند أدائنا له، وكيف يجب استقباله من قبل المتلقي: فقد يتعلق الأمر بطلب، تهديد أو اقتراح....الخ، فالتكلم تواصل أيضا مادمنا نتواصل بالحديث، وتضمين في التلفظ للكيفية التي يراد أن يدرك بها هذا الأخير من قبل المتلقي. إن تأويل اللفظ لا يتم وفعل اللغة لا ينجح إلا إذا أدرك المتلقي النية المرتبطة بالتلفظ، فلكي يكون فعل الأمر ناجحا وجب على المتلقي معرفة أنه أمر موجه إليه، وبإمكانه التوصل إلى ذلك بالاستعانة بعلامات أحادية المعنى marqueurs univoques (صيغة الأمر أو سابقة إنجازية) (préfixe performatif) مثل "آمرك" (je t'ordonne)، سواء أكان من النبرة أو السياق.

يميز أوستين على الخصوص، ثلاث قوى فاعلة مكملة للأداء، فنطق اللفظ، هو في الآن نفسه:

– إنجاز فعل تلفظي locutoire، إنتاج سلسلة من الأصوات تحمل معنى في لغة ما.

– إنجاز فعل تقريري illocutoire، إنتاج ملفوظ ذي قوة ما مرتبطة به بناء على اتفاق عن طريق القول نفسه.

– إنجاز تأثيري perlocutoire، أي إحداث تأثيرات في الوضع عن طريق الكلام (فعلى سبيل المثال، بإمكاننا طرح سؤال (فعل تحقيقي) مقاطعة شخص ما أو إرباكه أو لنظهر وجودنا، ... الخ). فالميدان الوظيفي perlocutoire يخرج من الإطار اللغوي المحض.

لقد فتحت إشكالية فعل الكلام المجال لنقاشات هامة ودقيقة ليس بوسعنا طرحها في هذا المقام، ولكننا سنشير فقط إلى الإشكالية التي تثيرها أفعال اللغة غير المباشرة.

ويتعلق الأمر بأفعال اللغة المنجزة بطريقة غير مباشرة بالاستعانة بأخرى، وبهذا تكون الجملة "هل بإمكانك إعطائي المربى ؟" (Voulez–vous me passer la confiture ?) هنا بشكل مباشر، سؤالا، ولكن المتلقي يفك رموزه على أنه طلب. وهنا نصطدم بمفارقة لغرض (الطلب) يبدو بوضوح أنه مخفي، فهو كذلك لأنه يختبأ وراء السؤال، ولكنه مفتوح لأن الانتقال من فعل اللغة الأولي إلى الفعل المولد (dérivé) يتم بصورة مشفرة عند المتحدثين بالفرنسية: فبمجرد سماعنا هذا السؤال يتم تأويله مباشرة على أنه طلب.. وإذن، كان الاهتمام بالآليات التي تتيح للمتلقي توليد (dériver) التأويل غير المباشر، فبالنسبة للصياغات المشفرة مثل: "هل تريد ؟" (Voulez–vous) أو "هل بإمكانك ؟" (Pouvez–vous ?)، وهي تحمل أدنى قدر من الصعوبات على عكس الصياغات التلميحية الأخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كان الملفوظ "تأخر الوقت " استوجب علينا اشتقاق "اذهبوا" في هذه الحالة يتعين علينا اللجوء بقوة إلى قوانين الخطاب والاستنجاد بها (أنظر الفصل 5).

ولكننا بمجرد تناولنا مشكل المعنى الحرفي Sens Littéral والمعنى الثاني Sens dérivé، لا مناص من الاصطدام بمسائل أخرى مثيرة، كتلك المتعلقة بالمجاز trope على وجه الخصوص: فكيف بوسعنا تأويل استعارات مثل: " Paul est

une andouille "؟ ولقد وصلنا إلى حد التساؤل ما إذا لم يتعلق الأمر، وهذا عكس ما يظنه أوستين، بملفوظات غير مباشرة في تلك "البادئة" الإنجازية "أؤكد أنها تمطر" (j'affirme qu'il pleut)، "ألمح إلى أن الطقس جميل" (je suggère qu'il fait beau)، وهل القول بأنني أؤكد وألمح هو إنجاز لفعل اللغة المناسب أو الحديث عنه فقط؟ فبين "إنها تمطر" و"أؤكد أنها تمطر "، أيهما أولي؟ إن الإجابة على هذا النوع من الأسئلة تستدعي بالضرورة خيارات فلسفية حول ماهية المعنى واللغة[‡].

شروط النجاح

لقد قلنا إن فعل الكلام لا يكون صحيحا أو خاطئا، لكنه يكون ناجحا أم لا، ويترتب عن مثل هذا التحديد آثار كبيرة إذ أنه يتعلق بصيغة تسجيل الملفوظات في الواقع. فبعد الالتزام بدقة، وعلى نحو ملائم، بالقواعد النحوية، يبدو أن فعل الكلام يخضع لعدد معين من شروط النجاح، ولا يمكن لأي شخص قول أي شيء في أي ظرف. وهذه المجموعة من الشروط هي التي تجعل فعل الكلام ملائما أم لا ومشروعا أم لا. وهذا لا ينطبق فقط على المؤسسات النموذجية كالعدالة والكنيسة والجيش ... التي تقنن بصرامة بعض الممارسات الخطابية. وهكذا، فإن فعل عاديا مثل إعطاء أمر يستتبع أن المتلفظ (الأمر) يحتل مرتبة أعلى، وهي الإمكانية المادية للمخاطب لإنجاز ما ينتظر منه إنجازه، الخ. وحتى فعل الإثبات أي تقديم ملفوظ باعتباره صحيحا، فإنه يخضع لشروط النجاح : فيفترض من المتحدث أنه يعرف عما يتحدث عنه وأنه صادق، وقادر على ضمان ما يقوله. وينتج عن ذلك، أن كل فعل كلام يتضمن مجموعة من الحقوق والواجبات وإطارا قانونيا خاصا بالمخاطب والمتلقي.

إن هذا يؤدي بنا إلى التساؤل عما إذا كان اعتبار الفعل منجزا حقا، إذا لم تتوفر جميع شروط نجاحه. فمثلا شخص يعد بفعل شيء وهو يعلم أن هذا الفعل مستحيل تحقيقه أو أنه خارج السياق القانوني يخبر جاره بأنه يحكم عليه بالسجن، فهل هو في هذه الحالة أنجز الأفعال الكلامية المتعلقة بهذا الوعد ؟ وكان هذا الموضوع محل نقاش كبير. أما من جهتنا، فإننا نعتبر أن فعل الكلام قد أنجز فعلا حتى وإن عد كأنه لم يكن. والواقع أن كل فعل كلام ينشد المشروعية من خلال عملية التلفظ نفسها، وبعبارة أخرى، فإن من ينجز فعل كلام لا يستعرض في البداية، مجموع الشروط اللازمة للقيام بذلك، ولكن مجرد تلفظه يقتضي توفر هذه الشروط. فلكي يقول روي بلاس Ruy Blas الخادم المتنكر في شخصية نبيل إسباني للملكة " أحبك " لا ينتظر حتى يكون له الحق بذلك، ولكنه يمنح نفسه هذا الحق بتلفظه ذاك على أساس الفكرة التي يحملها عن الأرستقراطية الحقيقية.

إن النطق بفعل الكلام يحدد بالضرورة، علاقة "موضعية" rapport de places من الجهتين، وطلب الاعتراف بالوضعية التي يرى كل واحد نفسه فيها : من أنا حتى أكلمه بهذه الطريقة ؟ من هو حتى أكلمه هكذا ؟ من يعتبرني (من يعتبر نفسه) حتى يكلمني هكذا ؟ الخ. وفي النهاية، فمسألة الهوية هي محل البحث هنا. وفي كثير من الأحيان، فإن هذا الأمر يمر دون أن يدرك، ولكن يحدث أحيانا أن يفترض الخطاب توزيعا جديدا للوضعيات عوض أن يؤكد التوقع، كما هو الحال في " جزيرة العبيد " L'Ile des Esclaves لـ " ماريفو " Marivaux حيث أخذ العبيد يصدرون

[3] . - حول هذه القضايا، أنظر: *Les Enoncés Performatifs* de F. Récanati, paris, minuit, 1981

الأوامر لسادتهم وتقوم الجزيرة بتوسيط هذا الانقلاب الخطابي، وهي البلد العجيب الذي يصبح فيه العبيد هم السادة. والمثل الأكثر وضوحا، هو حالة " ساتير " Satyre في " أسطورة القرون " لفيكتور هيقو Victor Hugo، Légende des siècles، حيث يستدعى ساتير إلى مجلس الآلهة وهو في موضع الدونية والاتهام لا يخضع، وإنما يقوم بمرافعة عنيفة، يتنبأ فيها بزوال من يتحدث إليهم: الآلهة الذين يحاكمونه ويختتمها بهذه الكلمات :

ليأخذ كل مكانه، أنا بان Pan، أنت يا جوبيتر Jupiter، اركع أمامي

فبإصدار ساتير لهذا الأمر، يكون قد أحدث انقلابا في السلطة واتخذ لنفسه الهوية المناسبة، هوية مبدأ إلهي جديد.

ولدى قراءتنا لما بين السطور، يمكننا إدراك التشكيل المسرحي الناتج عن قوة الكلام الشعري نفسه لفيكتور هيقو التي هي كلام الإله : " ولأن الكلمة هي الفعل والفعل هو الله " كما جاء في كتابه " العقاب " Chatiments، فكلام الكاتب المنفي هنا ينتصر على قوة سياسية جائرة، ففيكتور هيقو هنا، يصل بالطموح التحقيقي لكل تلفظ حتى منتهاه.

تصنيف أفعال الكلام :

لقد بذلت جهود عدة في تصنيف أفعال اللغة (الكلام) وكان أوستين نفسه قد فعل ذلك، أو بعبارة أدق، صنف الأفعال التي يمكن أن تعبر عنها، وهناك عشرات من المحاولات الأخرى في هذا الموضوع، إلا أن المهمة تظل عسيرة وذلك لعدم وجود اتفاق حول العناصر المعنية بهذا التصنيف ولا المعايير الملائمة لذلك.

ولإعطاء فكرة عن الفئات التي نستخدمها نقدم التصنيف الذي وضعته ف. ريكاناتي F.Récanati[§] وقد استوحته هي الأخرى من الفيلسوف ج. سارل J.Searle.

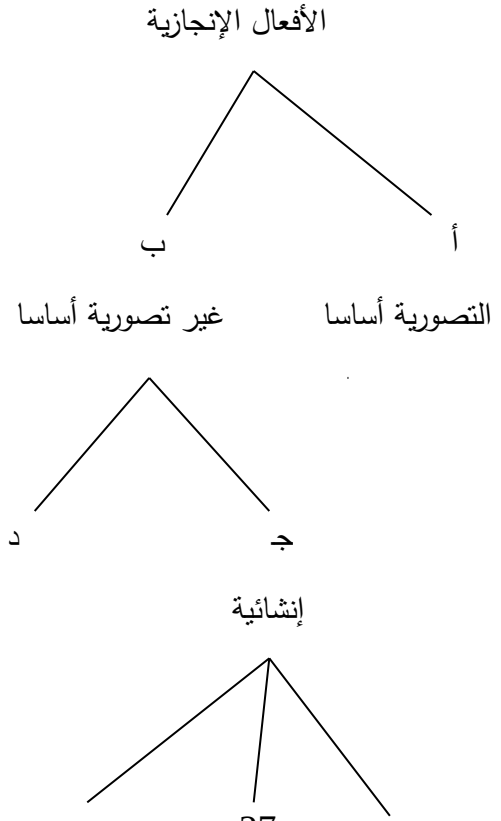

4- أنظر: الفصل 6.[§]

هـ	و	ي
أمرية	وعدية	إقرارية

أ – تمثل وضعية ما.

ب – تعبر عن موقف اجتماعي (شكر، اعتذر..).

جـ – تمثل وضعية تتحقق بواسطة التلفظ (عمد، أمر..).

د – تمثل وضعية تقدم كمعطى بمعزل عن الفعل التلفظي (أكد، زعم..).

هـ – يكون التغيير في الوضعية فوريا لأن التلفظ هو المتسبب في هذا التغيير (حكم، أمر..).

و – يقع التغيير على عاتق المتكلم (وعد..).

ي – يقع التغيير على عاتق المرسل إليه (أمر..) ؛ ويعبر الفعل هنا عن نية المرسل إليه في تحقيق (إنجاز) الوضعية لأن التلفظ يتضمن هذا القصد.

ولكن وضع تصنيف شامل يثير إشكالية كبرى، هل يجب التسليم بوجود عدد من أفعال الكلام في لغة بقدر ما فيها من الأفعال للتعبير عنها ؟ هل يتضمن كل فعل فعلا إنجازيا متميزا ؟

فعلى سبيل المثال، هل أن ساند وزعم (soutenir et prétendre) هما بالضرورة فعلان إنجازيان متمايزان ؟ هل هذه الأفعال الكلامية تخص مختلف اللغات الطبيعية أو هل يمكن وضع تصنيف مستقل عنها ؟ ألا تندرج أفعال عديدة في الآن نفسه في عدة تصنيفات ؟

وسنلاحظ أنه توجد في اللغة صيغ تحقيقية لا يبدو أن معناها يوافق أي فعل معين، مثل : " إلى الجحيم أيتها البخيلة " " Au diable l’avarice ! " " سحقا لك أنت أول / من علمني الخيانة " (موسي) " Honte à toi qui la première / m’a appris la trahison" (Musset)..وفي السياق نفسه سنلاحظ أنه إذا كانت عبارة " قذر! " " Salaud ! " تتضمن معنى الشتم فليس الأمر كذلك بالنسبة لعبارة " أشتمك " " je t'insulte".

إن الأفعال الإنجازية ليست في ذاتها سوى مجموعة من مجموعات الأفعال التي تسمح بتشكيل صيغة الملفوظ.

وفي العادة، يتم التمييز بينها وبين الأفعال التي يطلق عليها علماء المنطق أفعال الموقف القضوي Verbes d'attitude propositionnelle، ففي حين تنجز الأولى فعل الكلام، تبرز الثانية التلاحم بين المتلفظ وعملية التلفظ التي يقوم بها ويتعلق الأمر بـالأفعال المعبرة عن وجهة نظر Verbes d’opinion (اعتقد، علم، قدر ...) (croire, savoir, estimer) التي تتعلق بحقيقة محتوى القضية، أو الأفعال الوجدانية Verbes affectifs (سر، أسف..) (se réjouir,

regretter)، وتتميز كل هذه الأفعال بخاصية القدرة على الاشتراك في حالتين اثنتين: كمقدمة لما يليها أو كحالة اعتراضية (عبارة معترضة):

" أؤكد (أظن/ يسرني) أن (يكون) هنا مع ليون

هو هنا مع ليون، أؤكد ذلك (أظن/ يسرني)

هو هنا، أؤكد ذلك (أظن/ يسرني)، مع ليون"

من الواضح جدا أن هاتين الحالتين ليس لهما نفس الأثر الدلالي. ففي حالة وجود الفعل كمقدم فهو يقتضي تفسير مجموع الملفوظات التي تليه، بينما في حالة الجملة المعترضة فهو يبدو مرافقا للملفوظ على أساس عارض لتفادي الوقوع في التأويل الخاطئ.

إن كل هذه الأفعال تبين مسألة أساسية طالما أهملت وهي أن المقول غير قابل للانفصال عن القول، والملفوظ مدعم بطريقة أو بأخرى بنوع من التعليق يقدمه المتحدث حول كلامه.

الأفعال الكلامية الكبرى Les Macro–actes de langage:

عندما يكون اهتمامنا منصبا على نصوص لا على ملفوظات معزولة كما هو الحال في الأدب، فإننا لا نستطيع أن نكتفي بالتعامل مع أفعال الكلام البسيطة (وعد، تنبأ..). إن التداولية النصية تواجه مقاطع قد تقصر أو تطول من الأفعال الكلامية التي تتيح إنشاء قيمة تحقيقية شاملة على مستوى عال وهي: (الأفعال الكلامية الكبرى) Les macros actes de langage. وفي هذه الحالة تبرز إشكالية أنواع الخطاب: فإذا كان المخاطب يعرف إلى أي نوع تنتمي هذه المجموعة من الملفوظات: (خطبة موجزة في وليمة، موعظة يوم الأحد، مقالة نقد سياسي،..الخ) فإنه سيجد التفسير الملائم الذي لا ينتج عن الحاصل البسيط لمجموع أفعال الكلام البسيطة ويبدو ذلك جليا في نص Du coté de chez Swann:

" منذ وقت، أصبحت تبدو على أوديت علامات الانفعال والحيرة. ورغم أنها لم تدرك معنى هذا الخطاب، فقد فهمت بأنه يمكن أن يندرج ضمن نوع "الخطب" ومشاهد من المعتابات والتوسلات من ذلك النوع الذي أصبحت، بفعل ما تعرفه عن الرجال، تدرك، من غير أن تتقيد بتفاصيل الكلمات، أنهم لا يمكن أن يتلفظوا به إلا إذا كانوا عاشقين، وماداموا عاشقين فلا فائدة من الانصياع لهم لأنهم لن يصبحوا كذلك بعد فترة".

لم تفهم أوديت تفاصيل ملفوظات سوان Swann، ولكن بما أنها استوعبت بأي نوع من أفعال الكلام الكبرى يتعلق الأمر، فهي تعلم كيفية الرد بالطريقة المناسبة.

ولا حاجة لأن يكون الملفوظ معقدا لكي يطرح المشكل فالتأويل الصحيح لمثل أو حكمة يتطلب ليس معرفة كونه "تقريرا" فحسب (على سبيل المثال، لكل بخيل ابن ضال A père avare fils prodigue)، بل أيضا نوعا خطابيا مخصوصا تناسبه أفعال كلامية كبرى مخصوصة، فالمخاطب مطالب بأن يدرك على الخصوص أن المتلفظ لا يتكلم باسمه، بل باسم حكمة الأمم، وأنه يتلفظ بقول يفترض أن يتناسب ووضعية التلفظ.. الخ، وهنا أيضا هناك شروط مطلوبة

لضمان النجاح، فإشكالية الأنواع la Problématique des Genres تبدو أساسية هنا، فبمجرد التعرف على نوع النص، بإمكان المتلقي تأويله والتصرف بالطريقة الملائمة بخصوصه، وإلا فإنه بالإمكان حدوث شلل حقيقي.

وبإمكاننا الذهاب أبعد في قضية الأنواع المتعددة للأدب ومساندة الرأي القائل بأن الخطاب الأدبي بصورته تلك هو عبارة عن ميتا–نوع métagenre، ويفترض طقوسا خاصة وشروط نجاح معينة. إن نصا أدبيا لا يتلقى بطريقة ملائمة إذا لم يؤول باعتباره أدبيا. ونتذكر الاضطراب الذي أحدثه مقال الجريدة الذي يصرح فيه م. دوراس M. Duras بـ "علمه" بأن كريستين فيلمان Christine Villemin قتلت طفلها، وحسب تأويل النص واعتباره أدبيا أم لا، فهو يدخل في مدارات متميزة كليا. فإذا اعتبرناه أدبا فإننا سنستبعد أي علاقة له بالواقع ونخلص الكاتب من أي مسؤولية.

وحول هذه النقطة، فإن مثال دون كيشوت Don Quichotte يحتوي على دروس مفيدة غاية الفائدة، ويتمثل جنونه في كونه يعتبر الخرافات إثباتات غير خيالية، ولا يتلقى النص وفقا للتقسيمات الخطابية المناسبة.

من شأن الخطأ التداولي النصي هذا أن يكون له تأثير تداولي غير نصي، وإن مهارة سؤفانتيس تتمثل في كون هذه المقابلة بالواقع هي نفسها خيالية.

القول/ الإظهار (العرض):

إن نظرية أفعال الكلام تؤكد بأن كل ملفوظ يحمل بعدا كلاميا illocutoire، ولكن هذه المكونة الدلالية لا تبدو بنفس الطريقة والتي يظهر بها محتواه القضوي، وعلى سبيل المثال، إذا استخدمنا صيغة الأمر لنعطي أمرا فإننا لا نقول في الملفوظ أنه أمر، بل نظهره إذ نقوله، وكذلك بالنسبة للملفوظ " إنها تمطر "، فلا نقول إنه تأكيد، ولكننا نشير إليه عن طريق التلفظ به. فلكي يكون فعل الكلام ناجحا يجب أن يتمكن المتلفظ من إعلام المتلقي بنيته في إنجاز عمل معين، والذي يشير إليه عبر التلفظ، فالملفوظ ليس ملفوظا تماما إلا إذا بدا كمعبر عن قصد من هذا النوع، ومعنى الملفوظ هو القصد في حد ذاته.

يأخذنا هذا المعنى الذي "يظهر نفسه" إلى قلب الجهاز التداولي، إلى انعكاسية التلفظ، أي إلى حقيقة أن فعل التلفظ ينعكس في الملفوظ. إن الملفوظات، كما يراها مفهوم اللغة النماذج، هي، بصورة من الصور، شفافة، وتتمحي أمام الحالة التي تمثلها. وبالمقابل، ففي المنظور التداولي لا يبلغ الملفوظ إلى تمثيل حالة معينة له إلا إذا أظهر أيضا تلفظه، فقول شيء ما يبدو ملازما للحركة التي يظهر أننا نقوله، ولا يتجلى هذا عبر أفعال الكلام فحسب، بل عبر الإشاريات Les Embrayeurs أيضا، فكل ملفوظ له علامات تشير إلى الضمير والزمان اللذان يعكسان التلفظ فيظهر نفسه إذ يظهر الفعل الذي يبرزه. ويعتبر، إذن، من المقلل، كما نفعل دوما، مقابلة استعمال "عادي" للغة حيث تصبح هذه الأخيرة شفافة ومنفعية لدى استعمالها "الأدبي" أين تتكشف باعتبارها غاية، ونكون قد اعترفنا بالموضوع البنوي لـ "لاتعدية" (لزومية) اللغة الأدبية.

وفي الحقيقة، فإن الفكرة القائلة بوجود لغة شفافة تماما ليست صحيحة حتى بالنسبة للخطاب العادي، بما أن عملية التلفظ تترك دوما أثرا في الملفوظ، وليس بإمكان اللغة أن تدل دون إظهار نفسها.

اللغة كمؤسسة:

وكما رأينا، فلكي تكون أفعال الكلام ناجحة يجب توفر بعض الشروط. فعلى سبيل المثال، يكون فعل التحية ملفوظا بطريقة مناسبة لدى رؤيتنا لشخص للمرة الأولى في اليوم إذا كان هناك رابط بين المتخاطبين يقتضي ذلك وإذا كان المرسل إليه بإمكانه إدراك ذلك الفعل وإذا كان فعل التحية تصحبه بعض الإيماءات والإشارات..الخ.

ولا يكتسب هذا الفعل معنى إلا في إطار شفرة وقواعد متفق عليها، يمكن، بواسطتها، تعريف الآخر بأننا بصدد إنجاز ذلك الفعل.

وهكذا تمثل اللغة مؤسسة ضخمة تضمن مشروعية ومعنى كل الأفعال لدى ممارسة الخطاب. ويبدو أنه ليس بإمكاننا الفصل فصلا جذريا بين أفعال الكلام والأفعال الاجتماعية المحضة، فبين "أكد" و"عمد" ليس هناك استمرارية، ولكنها أفعال متموقعة في قطبين متقابلين من السلم ذاته، وغالبا ما يستدعي نجاح فعل اللغة شروطا اجتماعية ولسانية في الآن نفسه، إلا أنه يجب التمييز بين الأفعال التي يتوقف نجاحها على موقف المجتمع (فمثلا إن شرعية العمادة أو الزواج أو عدمها تصدر من قبل الكنيسة أو العدالة) من تلك التي يتم بالفعل إنجازها عبر التلفظ بها فقط (طلب، اقترح..).

عندما عرف دي سوسير Saussure "اللغة" بأنها مؤسسة، كان يراها "كنزا" من العلامات المتناقلة جيلا عن جيل، محيلا النشاط اللغوي إلى "الكلام "، أما التداولية فإنها تدعم الفكرة القائلة بأن اللغة مؤسسة، ولكنها تضفي عليه بعدا جديدا. وهذا يتماشى مع تغيير هام لمفهوم "الرمز اللساني ". ففي اللسانيات البنوية، يتعلق هذا الرمز بأنظمة نقل المعلومات (الترميز، فك الترميز) (encodage, décodage...)، في حين أن هذا المصطلح، بالنسبة للتداولية، يعيدالعلاقة بمعناه القانوني، ذلك أنه يعتبر أن العملية الخطابية يتحكم فيها سلوك معقد وتكون مرهونة بقضية الشرعية.

ومن هذا المنظور، فإن التكلم وإظهار بأن لنا الحق في الكلام مثلما نفعله ليسا شيئين منفصلين. فإذا كانت العملية الخطابية تسيرها مبادئ من المفروض أنها معروفة من قبل المتخاطبين الذين يتبنونها للتأثير في الآخر، فإن ذلك يؤدي بصورة طبيعية إلى إشكالية "قواعد اللعبة" règles du jeu.

ففي "دروس اللسانيات العامة" لسوسير، تتيح المقارنة الشهيرة "للغة" بلعبة الشطرنج توضيح مفهومي القيمة والآنية. وبالمقابل، فإن ما يهم التداولية هو قبل كل شيء حركية اللعبة. وكما هو الأمر بالنسبة للعبة التنس أو لعبة الشطرنج، فالشركاء في التخاطب الخطابي يشاركون في نفس اللعبة، التي تقدم شروطا لمواجهة طقوسية تقوم على استراتيجية موضعية أو شاملة، تتم إعادة تحديدها دوما، تبعا للاستباقات التي يقوم بها الممثلون.

ولقد أكد فيلسوف اللغة جون سارل John Searle على الطابع التأسيسي لقواعد اللعبة هذه، فبينما ينحصر دور قواعد مرور الطريق في تنظيم عملية مستقلة عنها، نجد أن قواعد لعبة التنس كتلك المتعلقة بالتبادل الخطابي تأسس هذه العمليات، فربح شوط أو البدء بالتسديد ليس له معنى إلا ضمن هذه اللعبة وهي لعبة التنس (خارج لعبة التنس لا يعتبر رمي كرة وراء الشبكة بدءا بالتسديد، وإن التأكيد والوعد والطلب ليس لها من معنى إلا في المؤسسة اللغوية وعبرها. وفي استمرارية لفكر أوستين، تبدو اللغة كمؤسسة تتيح إنجاز الأفعال التي لا تكتسب معنى إلا من خلالها.

هذا لا يعني بأن النشاط الخطابي هو مجرد لعبة لا تنجر عنها نتائج في مقابل الطابع الجاد للعالم غير اللغوي. بل على العكس، إن التداولية، إذ تقول بأن القول هو بصورة من الصور فعل، وإذ تدرج الخطاب ضمن نظام مؤسسي، إنما تنحو نحو إعادة النظر في تلك المعارضة القديمة بين الكلمات و "الواقع" التي تتلخص في المقولة الشهيرة لهاملت Hamlet "كلمات، كلمات، كلمات" (words, words, words).

وفي نفس الإطار الفكري، يظهر الخطاب الأدبي هو أيضا كمؤسسة، بتقاليده التلفظية. تكتسب القصيدة الريفية أو الكوميديا معناها بداخل هذه المؤسسة، ويتم التواصل الأدبي على صعيد أوسع وبصورة أفضل. وبهذا طورت التداولية مفهوما جديدا للأدب يختلف كثيرا عن ذلك الذي فرضته الرومانسية التي تولي اهتماما كبيرا بـ"الرؤيا الشخصية" للكاتب (أو الفاعل الجماعي) وتضع التقاليد الخطابية للمؤسسة الأدبية في الدرجة الثانية.

التفاعل

إن إشكالية أفعال الكلام كغيرها من مجموع التيارات التداولية تولي دورا أساسيا للتفاعل الخطابي إلى حد أن هذا الملمح يكفي، بالنسبة للبعض، لتسجيل بحث ضمن المدار التداولي. وبما أن اللغة لم تعد مدركة على أنها وسيلة لتعبير المتخاطبين عن أفكارهم وحتى لنقل المعلومات، ولكن كنشاط يغير حالة بتعريف الآخر بنية تداولية، ومنذ الحين الذي اعتبرت فيه التداولية كـ "طقس" rituel قائم على مبادئ تعاون بين المشاركين في العملية التلفظية، ولن تصبح الهيئة الدالة في مجال الخطاب هي المتلفظ بل الزوج الذي يتكون من المتكلم locuteur والمخاطب allocutaire والمتلفظ énonciateur والمتلفظ المشارك co-énonciateur، حسب تعبير أ. كوليولي A. Culioli.

ليس "أنا" (je) إلا ملازما لـ "أنت" (tu)، "أنت" (tu) افتراضي؛ إن حاضر التلفظ ليس متعلقا فقط بالمتلفظ بل حاضرا مقسما خاصا بالمخاطبة، وفي هذا تتعارض التداولية مع اللسانيات البنوية، ولكنها تعطي قوة جديدة للمفهوم السوسوري الذي يرى بأن اللغة مؤسسة تضمن استقرارها الحركة المستمرة الناتجة عن التبادلات اللغوية échanges verbaux.

وهكذا، نركز كثيرا على فكرة أن المتلفظ يصنع ملفوظه حسب ما قاله المتلفظ المشارك co-énonciateur، وأيضا تبعا للفرضيات التي يبنيها حول القدرات التأويلية لهذا الأخير. إن فعل التوقع والاستعانة باستراتيجيات بارعة جعلت لمراقبة وتوجيه العملية التأويلية ليس لها بعد ثانوي بل تكويني للخطاب. ولنتفحص هذا المقطع من du coté de chez Swann حيث تحدث السيدة كوتار Mme Cottard خلال عشاء سوان Swann عن مسرحية رائجة لم تشاهدها بعد:

(قالت : "أتعلمون أن الأمر متعلق بطريقة الحكي" بعد ملاحظتها هيئة سوان الجادة افترضت بأنه لا يطيق فرانسيون:

– "وفضلا عن ذلك، أظن أنها ستخيب ظني، لا أظن أنها سترقى إلى مستوى سارج بانين الذي تعشقه السيدة كريسي" (...) (Gallimard, "folio", p. 306)

كانت وهي تتحدث، تراقب مخاطبها الذي كانت تسعى إلى كسب رضاه. وإذ لاحظت برودته وجفاءه، حولت مسار حديثها مستخدمة " mais " (أنظر الفصل 3 حول" mais ") مرفوقا بـ "أنتم تعلمون" (Vous savez)، الذي يلتمس تواطؤ الـ co–énonciateur بطلب تقاسم مسؤولية القول. إن تغيير المسار هذا، الذي من شأنه أن يسمح لها باستعادة الموقع المفقود، يقتضي وضع استراتيجية جديدة، قائمة على أساس فرضية، خاطئة. إن عبارة "فضلا عن ذلك" تضمن استمرارية كلامها وتعلن في الوقت نفسه عن توجه جديد، قائم على أساس تراجع تكتيكي.

إن تقديم " أظن " (je crois) وربطه بالمضارع يقتضي تكفلا تلفظيا قويا، ويبدو أنه من الضروري اعتماده لاستدراك الموقف بسرعة. ويتوجه المتلفظ التالي الوجهة نفسها فيما يتعلق بسياق وروده بإعادة استخدام "أظن" (Je crois والتذكير بأذواق أوديت Odette الذي يرمي إلى الحصول على إقحام سوان Swann : وبما أن السيدة كوتار Mme Cottard تعلم بأنه يعشق أوديت Odette، فهي تستنتج بأنه يحب ما تحبه هذه الأخيرة. وبلباقة، تظاهرت بأنها تستحضر، كما في معرض الحديث، وكأن الأمر يتعلق بمعلومة ثانوية، (" وضعت عبارة "معشوق السيدة كريسي" في وضع عطف بيان) ما هو في الحقيقة عماد استراتيجيتها وسبب وجود ملفوظها.

في هذا المثال، يظهر لنا بوضوح أن الخطاب لا يبدو أنه تعبير عن الحالة الداخلية بقدر ما هو شبكةمن الاستراتيجيات المعقدة والمتقلبة التي يحاول المتلفظ بواسطتها إعطاء قيمة لنفسه من خلالها والتغلب على مخاطر الإنقاص من قيمته. كانت السيدة كوتار تعلم أن "سوان" هو، في الوقت نفسه، متذوق للجمال ورجل مجتمع جد مرموق، لذا فقد كانت تخشى أن يكون عنها صورة سلبية. هذا القلق هو الذي أدى بها إلى مراقبة ردود فعله وتحويل مسار تلفظها عند ظهور أي خطر. هذا التصرف له قيمة مثالية: إن كلام المتلفظ يجب أن تؤكده الإيماءات les Mimiques ونظرات المتلفظ المشارك Le co–énonciateur. إن التواطؤ هو الفضاء الذي يتحرك فيه الخطاب.

ولا يكتفي المتلفظون بنقل المضامين التمثيلية، بل يسعون إلى التموقع دوما من خلال ما يقولون، وإلى إثبات النفس عبر الإثبات والسعي إلى ضمان حضورهم في الخطاب

(" أسمح لنفسي بأن أقول لك أن...." "je me permets de vous dire....")..الخ.

وفي المنظور التداولي، لا يعتبر تأويل الملفوظات كترتيب لوحدات تنطوي على معان ويكفي التعرف عليها وتركيبها، بل تعتبر كشبكة من التعليمات تتيح للمتلفظ المشارك co–énonciateur بناء المعنى، وهكذا تجيب على فرضيات المتلفظ حول المتلقي، فرضيات هذا الأخير حول المتلفظ. وكل الفرضيات تقوم على معايير وآراء رائجة يفترض أن يتقاسمها المتحدثون بلغة ما عند الخطاب. وينجم عنه لاتماثل جذري dissymétrie radicale بين التلفظ والتلقي، مثلما يبينه أ. كوليولي A Culioli :

" يفترض كل ملفوظ تلفظا لاتماثليا والإنتاج والتعرف التأويلي. إن قصد التلفظ على الإنتاج وحده ليس له معنى إذا لم تكن هناك نية مزدوجة لإنتاج المعنى لدى المتلفظين الذين يعتبرون المرسلين والمتلقين في الآن ذاته وليس تباعا بل في زمن التلفظ ذاته "[**].

[**] - - "Sur quelques contradictions en linguistiques", Communications, n° 20, 1973, p. 86.

وهكذا فإننا نحمل على منح الوزن الحقيقي للتعليقات التي يقوم بها المتلفظ حول قوله، مع إعادة صياغة واستباق ردود فعل الآخر، إنما يسعى لمراقبة التأويل ولن يتمكن، في الحقيقة، أبدا من السيطرة عليه تماما.

إن التركيز على التفاعل لا يعني بأن كل ملفوظ سيصبح مباشرة حوارا dialogue، حديث يدور بين أفراد بحضورهم، والأمر واضح خصوصا فيما يتعلق بالخطاب الأدبي الذي تقتضي فيه أنواعه المتعددة وجود مسافة ضرورية بين الكاتب والمتلقي، وهو أمر وارد أيضا بالنسبة للعديد من الأجناس غير الأدبية. ولن نخلط بين الحوار والبعد الحاوري dimension dialogique، فكل ملفوظ حواري إلى أبعد الحدود، حيث أنه لن يمكننا التحليل تحليلا مقبولا إذا لم نتاوله من حيث توجهه نحو الآخر، ونحن هنا أمام فكرة من الأفكار الأساسية للساني الروسي م. باختين M. Bakhtine، الذي يستند إليه الكثير من التداوليين : " إن كل ملفوظ يوضع بالنظر إلى مستمع، أي بالنظر إلى فهمه وجوابه –ليس جوابه الفوري بالطبع، إذ لا يجب مقاطعة خطيب أو محاضر بملاحظات شخصية، وكذلك بالنظر إلى موافقته أو عدم موافقته، أو، بعبارة أخرى بالنظر إلى الإدراك التقييمي للمستمع (...) نحن نعرف الآن بأن كل خطاب هو خطاب حواري موجه نحو شخص معين قادر على الفهم وإعطاء الجواب، حقيقيا كان أو افتراضيا"[††].

وعلى مستوى تجريبي أكبر، يقود هذا الانشغال اللسانيين إلى إعادة الاعتبار إلى واسمات تداولية كثيرا ما أهملت. فبالإضافة إلى الكثير من مظاهر اللاتجانس التلفظي (الخطاب المنقول، السخرية، علامات التنصيص، الخ..) التي تحول نصا إلى ملتقى أصوات، يتم التأكيد على تلك العناصر التي تجمع، حسب مقادير مختلفة، قيما تلفظية نصية وحجاجية وتفاعلية تحادثية: " Quoi ! " (ماذا) " allons donc ! " (هيا)، "ma foi" (لعمري)، " bien " (جيد)(في المثال "je sais bien que" (أعلم جيدا أن)، " Certes " (بالتأكيد) .... الخ. ومن هذا المنظور، تطور أحد مجالات البحث الأكثر نشاطا في التداولية، وهو تحليل المحادثة analyse conversationnelle الشديد التأثر بعلم الاجتماع الأمريكي[‡‡] ذي النزعة "الأتنولوجية ". يلتقي هذا النوع من الأعمال مع الأبحاث حول الحجاج، التي تدرس هي الأخرى التلاعبات البارعة التي ينسجها المتخاطبون في مجرى الديناميكية الاتصالية حيث يرتبط تسلسل تدخلاتهم ارتباطا وثيقا باستراتيجيات التقاط الكلام، وعمل ضمني للمفاوضة المستمرة. وفي أفق هذا المنظور، تتجلى الفكرة بأنه من الممكن مطابقة معنى الخطاب باستراتيجياته وديناميكيته وهدفه. نحن إذن أمام إعادة تقييم لكل ما يمكن في الخطاب أن يتم التعبير عنه في صيغة استراتيجيا. إن التداولي "أ. ديكرو" (O. Ducrot)، عندما وضع في صدر مجلة " Sémantikos" homo homini lupus (الإنسان ذئب للإنسان)، قد بين جيدا العلاقة الوثيقة بين علم الدلالة Sémantique والجدل Polémique، بالمعنى الواسع. إن الحوار ليس تبالا متناغما للمعلومات بقدر ما هو شبكة مرنة يحاول كل واحد فيها أن يحبس فيها المتلفظ المشارك le co–énonciateur.

[††] - - T. Todorov, Mikhail Bakhtine. Le principe dialogique. Suivi des écrits du Cercle de Bakhtine, coll. "Poétique", Seuil, 1981, p. 292 et 298.

[‡‡] بالنسبة لهذا التيار، سنرجع بالفرنسية إلى: - *Engager la conversation* de John Gumperz, Paris, Minuit, 1989; sur E. Goffmann, actes du colloque dirigé par R. Castel, J. Cosnier et I. Joseph, Paris, Minuit, 1989. الأعمال الأكثر تقدما في مجال تحليل الخطاب هي تلك المتعلقة بـ :مدرسة جنيف"؛ بإمكاننا قراءة E. Roulet et al. *l'Articulation du discours en français contemporain,* Berne, Lang 1985, et l'ouvrage de J. Moeschler المذكور في آخر هذا الفصل. نذكر أيضا، بإدارة J. Cosnier et Kerbrat-Orecchioni, *Décrire la conversation,* Presses Universitaires de Lyon, 1989.

هذا التواجد الدائم للآخر، وهذه المواجهة التلفظية الضمنية تكشف عن نفسها بطرق عديدة، ويكفي توجيه منظور التحليل في هذا الاتجاه الحواري لتتجلى مجموعة من العناصر. وعلى سبيل المثال، فإن مجرد توضيح لسابقة أدائية préfixe performatif يدرك على أنه من قبيل المجادلة : " إنها تمطر " (il pleut) لا تعني " أؤكد أنها تمطر " (j'affirme qu'il pleut)، وهذا الملفوظ الأخير يفترض مجالا من الاعتراضات الافتراضية أو الحقيقية. وفي السياق نفسه، فإن القول " أعلم أنها تمطر " (je sais qu'il pleut)، مقارنة بالقول البسيط " إنها تمطر " (il pleut)، يتلون بقليل من النقض، فكل تكفل تلفظي قوي يبدو موجها ضد تلفظ آخر. عندما قال دون دياغ Don Diègue للكونت " أعلم بذلك، أنتم تخدمون الملك جيدا " (je le sais vous servez bien le roi)، هذا " العلم " (savoir) يدرك في واقع الأمر باعتباره عملية تنازل من قبل دون دياغ لمخاطبه الغارق في المفاخرة، ولكن عندما قال رودريغ Rodrigue للكونت نفسه : " أتعلم أن هذا الشيخ هو الفضيلة والحكمة وشرف زمانه، أتعلم هذا ؟ ". فسؤاله لا يتعلق بالضبط، بسعة معارف الكونت، ولكن يخبره بطريقة التلفظ هذه، ما يجب عليه أن يعرف، كما في البلاغة الماضية حيث نقول ما نزعم عدم الرغبة في قوله (لن أرسم) (" je ne peindrai pas ")، وهنا، نعلم، تحت غطاء الاستعلام، معارف الآخر. إن تكرار " هل تعلم " (sais–tu)(كررت مرتين فيما سبق في النص) تمسرح théatralise مبادرة رودريغ Rodrigue وموقفه المتمثل في حبس الكونت داخل كلامه دون مقدمات. وهو يبدو متأكدا من حقه، سواء في السنن الخطابي أو السنن الأرستقراطي؛ وذلك عندما سمح لنفسه باستعمال ضمير "أنت" في مخاطبته للكونت، وترديد عبارة "أتعلم هذا "، وهو إذ يضع مساءلة فإنه يفرض عليه خطابه ومن ثمة يتحداه رافضا الوضع المتميز الذي يمنحه الكونت لنفسه والوضع الذي يسنده الكونت له.

ملتقى الأصوات:

إن التمييز بين الحوار والبعد الحاوري يقود إلى إبراز القيمة التفاعلية لكل ملفوظ، هذه القيمة لا تتجلى في المسرح فقط. وقد جرت العادة بنسبة نصوص من هذا النوع إلى " البلاغة " وغالبا بغرض التحقير. ولكن التصرف كذلك يعني الامتناع عن تحليلها وإقصائها ضمنيا من الأدب الحقيقي الذي يجب أن يكون "صادقا" و" لا يحاول التأثير ". والحقيقة أن هذه الصورة عن الخطاب الأدبي هي صورة موروثة عن الرومانسية التي تتجاهل هكذا جزءا معتبرا من المدونة. إن البعد الحواري يمكن أن يظهر جليا حتى في نص سردي من نوع السيرة الذاتية autobiographique. خلال رحلته في منطقة بوهيم (Bohème) ذات ليلة جميلة، ذكر شاتوبريان Chateaubriand ليالي روما وابتكرشخصية الشابة الإيطالية سينتي Cynthie (اسم امرأة تغنى بها الشاعر اللاتيني بروبرس Properce).

ولا يتعلق الأمر إطلاقا هنا، بنص في وضعية خطابية، ولكننا ندرك بوضوح إبراز تفاعلين متراكبين: الأول بين الراوي والقارئ، المخاطب مباشرة، والثاني بين الراوي وشخصية سينتي Cynthie. إن الروابط الحجاجية والمنادى والـ "أنت" (tu) هي العوامل التي تهيكل هذا النص الذي يندمج فيه كل من الرؤية (voir) والقول (le dire) ويندمج فيه بناء فضاء تشكيلي مع عملية التلفظ (أنظر الإشارة إلى "المنظور المخادع "). نجد هنا عملية إخراج مزدوج، تلك المتعلقة بلوحة وبكلام، إنها مسرحة ذات بعد مزدوج Théatralité à double portée . ومن المؤكد أن التحليل الذي يهمل فيه الثاني لفائدة الأول هو تحليل يخطئ هدفه.

إن المنظور التداولي يتيح التركيز أيضا على نقطتين هامتين: فعل القراءة l'acte de lecture والتناص l'intertextualité.

سنلاحظ أن نص Chateaubriand يفترض قارئا على درجة عالية من الثقافة، يعرف من هي سينتي Cynthie، والحورية Egérie، وDélie و Lalagé ويستحضر فيبوس Phébus من وراء الاستعمال الوارد للفيبيات "phébéennes"، الخ. وهنا جانب مهم سنعود إليه (في الفصل 2): إن النص يؤسس هنا وضعية قراءة (تتعلق بشخص يملك ثقافة لاتينية إغريقية واسعة) ويتضمن بهذا فضاء تواطؤ عبر استراتيجيات فك الرموز التي يفرضها، لكن هذا لا يستثني على الإطلاق عملية فك رموز بها ثغرات بل خاطئة.

علاوة على ذلك، فبإعطائه لشخصيته اسم امرأة تغنى بها شاعر من العصور الرومانية القديمة، وبذكره Délie التي تغنى بها Tibulle، Lalagé و Lydie اللواتي تغنى بهما Catulle، بشملهن كلهن في شخصية Egérie، فإن الكاتب يدرج موارية تلفظه الخاص في خضم هسهسة الكلام الشعري السابق، فهو يجعل قوله مشروعا بإظهار ملهمته سينتي Cynthie (العتيقة والمعاصرة في الآن نفسه) محاطة بـ "تمتمة " "الأقوال الغريبة" للملهمات الأخريات، ومن وراء ذلك، يفترض النص حوارية dialogisme تأسيسية بين أدب Chateaubriand والأدب اللاتيني والمساهمة في فضاء بلاغي مشترك وفي نوع القراءة التي يحددها.

العبر– نصية Transtextualité:

تتجلى العديد من النصوص باعتبارها ملتقى تناصي مسكونا دائما بكلام الآخرين يتردد فيه صداه، ولقرون عديدة، شكل القسم الأكبر من الأدب الفرنسي نوعا من الطروس، فلم يكن متاحا سوى للقراء المتعودين على الثقافة الإغريقية اللاتينية، ولقد كان هناك فضاء كبير لـ "إنسانيات" موغلة في القدم، تحركت داخلها النصوص، ولكن هذا التناص ليس إلا جانبا بارزا من ظاهرة تخص مجموع المؤلفات الأدبية وهي العبر– نصية Transtextualité، بأخذ مصطلح لـ ج. جينيت G.Genette.

إن دراسة الأدب بالنسبة لجيرار جينيت تتطابق مع دراسة العبر– نصية Transtextualité حسب تعبير جيرار جينيت و"التعالي النصي للنص" ("كل ما يربطه بعلاقة ظاهرة أو خفية مع نصوص أخرى "[§§]). إن جيرار جينيت يواصل هنا تفكير باختين Bakhtine الذي يرى أن "الخطاب يتلاقى مع خطاب الآخر في كل الطرق المؤدية إلى موضوعه، فهو لا يستطيع اجتناب الدخول معه في تفاعل حاد وشديد. إن آدم الأسطوري، الذي أنتج أول خطاب عن عالم بكر لم يقل بشأنه بعد شيء، إن آدم المعزول هو وحده الذي يستطيع أن يتفادى تماما إعادة التوجيه المشترك هذا بالنسبة لخطاب الآخر "[***].

§§ - .- G. Genette, Palimpsestes, Seuil, 1982, p. 7

*** - - T. Todorov, op. cit., p. 98.

ويميز ج. جينيت G.Genette أصنافا محتلفة للعبر– نصية Transtextualité: التناص Intertextualité الذي يفترض الحضور المشترك لنصين على الأقل (التلميحات، الإستشهادات، السرقة الأدبية....)، وهو العلاقة الأكثر وضوحا.

– المناص Paratextualité: عنوان، تحذيرات، مقدمات، ملحقات، ملاحظات..الخ.

– الماوراء– نصية Métatextualité: الأشكال المختلفة للتعاليق.

– المعمار النصي L'Architextualité: وهي التسميات النوعية (كوميديا، أقصوصة)، والتي ليست معبرة عنها بالضرورة.

– التعالق النصي L'Hypertextualité : العلاقات الموحدة لنص أضيف إلى نص سابق، سواء بالتحويل أم المحاكاة.

لا يسعى الإنتاج إلا إظهار ex nihilo بقدرما يسعى إلا تحريكه وقلبه، الخ لما سبق قوله. وهو لا يكون مقروءا، بصورة معينة، إلا فيما يتعلق بمخططات مستبطنة مسبقا إلا أنه لا يمكننا أن نلبث في "وهم أدب غير مستقر" (أو حقن ماعبر–نصي)، المتواجدة دوما بالنسبة لنفسها في شموليتها وكشمولية"[†††]

الـخيال وأفـعال الـكلام:

إن العلاقة بين أفعال الكلام والأدب قد لا تتوقف عند اعتبار ما قدمته التداولية في مجال التفكير حول اللغة. وبالفعل، فهي ندفع إلى تمييز خصوصية الملفوظات الأدبية باعتبارها أفعال كلام. ما هي القيمة الحقيقية لملفوظ تخيلي؟ هكذا تساءل سيرل Searle حول "الوضعية المنطقية للخطاب الخيالي"، مع الإشارة أن القصة الخيالية لا تتوافق مع شروط الإثبات الحقيقي: المتلفظ ليس صادقا ولا يلتزم ولا يضمن حقيقة أقواله. إن التخييلات هي إذن، بالنسبة لسيرل إثباتات يتظاهر الكاتب بالتلفظ بها. وعليه، سيكون في موقف التلفظ نوع من عدم البت في القيمة التحقيقية valeur illocutoire.

ومع ذلك، سنأخذ بعين الاعتبار أن مفهوم الخيال لا يتطابق تطابقا تاما مع مفهوم الأدب (فالحديث العادي ملئ بملفوظات الخيال) وأن الأدب مكون من أعمال وليس ملفوظات معزولة. ليس بإمكاننا حصر الخيال الأدبي في موقف المتكلم بالنسبة لتلفظه الخاص بما أنه من بين خصوصيات الخطاب الأدبي جعل مفهوم المتلفظ نفسه مسألة إشكالية وتمييز الشخص الذي يكتب من صور الكاتب التي يمكن أن تحددها المؤسسة الأدبية.

اقترح ج. جينيت G. Genette فكرة إدراك المتخيلات السردية باعتبارها ناتج فعل كلامي غير مباشر[‡‡‡]. فهي، بالنسبة إليه، مزاعم مصطنعة، ولكنها تنتج "عملا" بصورة غير مباشرة، حيث يقدم الكاتب نوعا من الأفعال الإخبارية التي تغير الحقيقة بموجب السلطة التي تمنحها له وضعيته ككاتب. هذا الفعل الإخباري يؤسس الحالة التي أحدثها تلفظه، وكما أن ملفوظ "الجلسة مفتوحة" ("la séance est ouverte") الذي صدر عن الشخص المؤهل، يحدث بصورة

[†††] - - G. Genette, op. cit., p. 453.

[‡‡‡] - - "Le statut pragmatique de la fiction narrative ", Poétique, 78, avril 1988, p. 237- 249. Sur cette question, on peut lire aussi T. Pavel, Univers de la fiction, Paris, Seuil, 1988; C. Jacquenod, Contribution à une étude du concept de fiction, Berne, Lang, 1988; R. Martin, "le paradoxe de la fiction narrative", le Français moderne, n° 3- 4, 1988.

غير مباشرة الحالة التي من المفروض أن يصفها، فإن الملفوظات التخييلية تؤسس في ذهن القارئ العالم الذي يفترض أنها تمثله. إن المتلفظ ينتج مباشرة إخبارا مزعوما وبصورة غير مباشرة إعلانا ("أعلن خياليا بأن.....") (" je décrète fictionnellement que..") إلا إذا فضلنا اعتبارها طلبا("تصوروا أن... ")("Imaginez que").

في هذا النوع من المقاربات، يمكننا تمييز اتجاهين أساسيين، فبالنسبة للأول، هناك أفعال كلام خاصة بالأدب (مباشرة أو غير مباشرة)، أما بالنسبة للثاني، فإن الخطاب الأدبي هو محاكاة لأفعال الكلام "الجدية" والتي يتظاهر الكاتب أنه يتلفظ بها.يحاول البعض إيجاد حلول توافقية، ذلك هو الأمر بالنسبة إلى ماري لويز براث[§§§] Mary Louise Pratt التي ترى في القصص الأدبية نوعا من الملفوظ ناتج عن تصنيف أوسع، وهي "النصوص السردية المعروضة" (Textes narratifs exhibés)، (Narrative Display Texts) التي تدعي أنها أكثر إثارة للاهتمام والتسلية منها إعلامية، والتي تبدو في الحال، جديرة بأن تحكى. إن النصوص الأدبية، بفعل وضعها التلفظي المتميز، تستفيد من تلق "جد محمي "، حيث يقدم القارئ الكاتب ثقة كبرى. في مثل هذا المنظور، فإن الحكي الأدبي، رغم أنه يبقى مرتبطا بعمليات الحكي العادي، إلا أنه يكتسب وضعا خاصا.

لا تتناول هذه الأفكار إلا لإظهار تمفصل ممكن للخطاب الأدبي والتداولية، فمهما تكن الحلول المعتمدة، فإننا نجبر في وقت أو آخر على إقامة فاصل بين النظام الأدبي والنظام غيرالأدبي للخطابات، ولكن كل قطيعة جذرية تبدو في الحال غير شرعية، فترفض ممارسة التمييز، وتقسيم الممارسة اللغة إلى مجالات يفصلها فاصل سميك.

وفي ظل هذه المحاولات لتعريف الظاهرة الأدبية من وجهة نظر تداولية، بإمكاننا رؤية نوع من التطابق في المواصفات "الأدبية" (littérarité) التي بحث عنها البنويون دون جدوى. ويتعلق الأمر من الجهتين بإبراز الميزات الخاصة بالأدب؛ ففي السياق البنوي، تم البحث عن ميزات خاصة بالبنية، وفي السياق التداولي، يتم العمل على المستوى التحقيقي illocutoire، والأمر متعلق هنا بإمكانية إقامة وضع للأدب وتخصيص نطاق له ضمن حدود عالم الخطاب.

ويبدو لنا أنه إذا كان للأدب شيء "خصوصي " فهي القدرة على خلخلة التوازن، هذه القدرة التي تتطلب من المنظرين حلولا معقدة ولكن غير كافية على الدوام. لن نستخلص من كل هذا الخاتمة المتعجلة التي ترى بأن أي معرفة حول الأدب هي أمر غير ممكن، لكن يجب الإبقاء على نوع من الحذر عندما ندعي أننا " نطبق "، بكل براءة، على النصوص الأدبية صيغا فكرية وأدوات تحليلية أعدت أساسا للغة.

§§§- - Towards a speech act theory of literary discourse, <Bloomington, Indiana University Press, 1977.